الدكتور فخرى لبيب

فى عام ١٩٤٧ احترقت كنيسة فى الزقازيق وصمم الشباب المسيحى فى شبرا حيث كنت أسكن على إحراق مسجد. وداخل الكنيسة خضت حوارا طويلا مؤكدا أنها مؤامرة استعمارية تستهدف إلهاء المصريين عن النضال ضد الاحتلال بإشعال نيران التطرف المتبادل، كسبت الأغلبية إلى صفى أما الأقلية فقد هددتها بمنعها بالقوة من ارتكاب هذه الحماقة، وماتت الفتنة فى مهدها.
فخرى لبيب «فى حوارى معه»

الجد عامل خراطة فى السكة الحديد شقى كثيرا كى يعلم أولاده فأصبح أحدهم معاون تلغراف وآخر معاون محطة إلخ، أبوه أصبح معاون محطة أفنى حياته كى يعلم أولاده «عايزكم تبقوا أحسن منى» هكذا كان يكرر ونجح، فقد أصبح من الأولاد ضابط وطبيب ومحاسب وجيولوجى، فخرى هو الجيولوجى ترتيبه الثانى بين سبعة إخوة، تنقلت الأسرة مع الأب من بلدة لأخرى، وهكذا عاش فخرى متنقلا بين طما، أبوقرقاص، جرجا، الفيوم، أسوان وبلاد عديدة أخرى، تعلم كالمعتاد فى المدرسة الإلزامية وكالمعتاد حفظ القرآن مع التلاميذ دون أن يستشعر أى حساسية، يقول فخرى «كانت الوحدة الوطنية على أيامنا راسخة فى وجدان كل مصرى وكان المدرسون يلقوننا أن الدين لله والوطن للجميع»، والمدارس كانت زمان تمتلك مكتبات، قرأ فخرى فيها المقتطف والرسالة وكتب المنفلوطى. والمدرسون أيامها كانوا مدرسين حقا، مدرس التاريخ حكى لهم بحماس شديد أحداث الثورة الفرنسية «ومن فرط حماسه اسميناه ميرابو»، ومدرس اللغة العربية كان يستعيد معهم ذكريات ثورة ١٩١٩ ويقول فخرى «وكان أبى يستعيد هذه الذكريات معنا ويستعيد بحزن شديد ذكرى خالى الذى شنقه الإنجليز خلال أحداث الثورة، وحتى مفتش التاريخ جاء يوما إلى الفصل ودعانا أن يكون من بيننا أحمد عرابى آخر أو مصطفى كامل آخر»

ويقول «أدمنت القراءة وفى الفيوم حيث نقل أبى التقيت بصديق العمر عبدالله كامل وقمنا معا بتكوين جمعية القراءة كل عضو يدفع خمسة مليمات ونشترى رواية أو اثنتين ونتبادل قراءتها، أما مدرس الإنجليزية فقد كان إنجليزيا مترفعا ومتأففا على الدوام ولكى نغيظه كنا نستخدم الكلمة التى كان يرتجف كلما سمعها وهى «الاشتراكية» وكان يرد علينا الاشتراكية تعنى أن تأكل فى طبق واحد مع خادمك، ونرد عليه نحن فقراء وليس لدينا خدم، أما عالمى الآخر فهو المحطة، ألبس الجلابية وأذهب إلى أبى لأتفرج على عالم جديد ومتجدد ويأتى القطار بأهم شىء.. الصحف»، ثم نقل أبى إلى المحاميد «أسوان» حملت أوراقى إلى ناظر المدرسة الثانوية، الناظر رفض، ولا حيلة لى، وقفت بباب المدرسة من الصباح حتى انتهاء اليوم الدراسى والناظر يتابعنى وفى اليوم الرابع قبلنى مؤكدا أنه رفضنى لأننى محول من مدرسة أهلية ويخشى أن أسقط فى امتحان «الثقافة» فتسوء نتيجة المدرسة «ولكن مادمت متحمسا للتعليم فلابد أنك ولد شاطر، وفى أسوان التقيت مجموعة كانت تتحدث بشكل بدائى جدا عن الاشتراكية وانضممت إليهم وعلقت على جدار غرفتى صورة ستالين، وفى الجامعة كان منظر جنود الاحتلال فى شوارع شبرا يثير أعصابى وقررت أن أكون مجموعة لقتلهم وفاتحت أحد أصدقائى فى الكلية ودون أن يقول شيئا دعانى إلى اجتماع، وذهبت وجلست دون أن أدرى أين أنا، ولكننى سمعت كلاما جديدا تماما الماركسية، لينين، المادية الجدلية ولم أستوعب شيئا، فقط انتظرت أن يحددوا موعدا لنبدأ فى قتل الإنجليز، وانتقلت إلى خلية أخرى وشرح لى المسئول أنه ليست القضية أن نقتل إنجليزيا وإنما أن نحرك الشعب لنطرد الاحتلال، وأصبحت عضوا فى منظمة ايسكرا» وخاض فخرى نضالا متعدد الجوانب شارك فى تأسيس النادى المصرى – السودانى، وزع مجلة الجماهير، شارك فى لجان مكافحة الكوليرا وتوحدت ايسكرا مع ح. م، وفوجئ مع كل الأعضاء العاديين أنه أصبح عضوا فى منظمة جديدة هى «حدتو»، وبعد فترة حدث أول انقسام فى حدتو قاده شهدى عطية وأنور عبدالملك وسمع عن تكتل سيف وسليمان «سيف هو أنور عبدالملك وسليمان هو شهدى» ووجد نفسه مع كل رفاق قسم شبرا فى التكتل، لكن التكتل انفرط بالقبض على شهدى وتناثرت منظمات صغيرة ووجد نفسه مع مجموعة صغيرة معزولين عن الجميع، كان أحدنا عنده مخزن للكتب الماركسية والأجهزة الفنية. كان شعار «التعميل» يحلق فوق رؤوس الجميع، فكان يعود من

الجامعة ليلبس ملابس عمالية ويجلس على مقاهى شبرا الخيمة باسم «الأسطى مختار» وفى مقاهى امبابة باسم الأسطى عفيفى، «وبعد قليل تعلمت من التجربة أن دردشات المقاهى لا تحقق فعلا ثوريا»، انضموا إلى «العصبة الماركسية» لكن الماكر فوزى جرجس ضمهم وأخذ منهم مخزن الكتب الماركسية وآلة كاتبة وورونيو ثم استبعدهم. فخرى واصل وبإصرار، والحقيقة أننى لا أدرى من أين كان هذا الجيل يستدعى كل هذا الإصرار. وكون مع عبدالله كامل ومنصور زكى والشهيد محمد عثمان تنظيما سموه طليعة الشيوعيين، الأسطى منصور زكى قام وبقروش قليلة بتصنيع مطبعة يطبع عليها نشرات أنيقة، وأصدروا نشرة «الصراع» ونشرة داخلية «الطليعة»، ترجموا بعض كتب الرفيق ماوتسى تونج وطبعها منصور، وتأتى ضربة أمنية فيقبض على القيادة عدا هو، وفى هذه الأيام حقق حلم أبيه وتخرج فى كلية العلوم قسم جيولوجيا لكن طموحه تحطم فالمتاح الوحيد مدرس أحياء وصحة فى مدرسة جريس الابتدائية الحرة فى كفر الزيات، ويقول «التلاميذ الفقراء علمونى معنى الفقر الحقيقى كانوا يمشون طوال المشوار من قراهم إلى المدرسة حفاة وعلى أبواب المدرسة يلبسون الحذاء حفاظا عليه، وقلت لنفسى بدلا من أن أكتشف الخامات الطبيعية كجيولوجى سأحاول اكتشاف حقائق المجتمع كشيوعى، وفى غمار ذلك كله كنت أسعى بجهد شديد فى بناء المنظمة من جديد ونجحت فى ضم عناصر عمالية ومثقفة وفيما تنهض المنظمة قبض علىّ فى مايو ١٩٥٤ وحكم على بالسجن ثلاث سنوات.

وفى السجن شارك فخرى بجهد رائع فى توحيد خمس منظمات «حدتو – التيار الثورى – طليعة الشيوعيين – النواة – النجم الأحمر» وتكون الحزب الشيوعى الموحد وأصبح فخرى عضوا فى لجنته المركزية، وفى السجن تألقت قدرته الفنية أو بالدقة استعادها وكتب رواية «مذكرات مدرس»، وفى ١٩٥٧ يفرج عنه ويصبح محترفا ثوريا، وواصل معركة توحيد الشيوعيين ويقول «كنت أعتبرها معركة حياة أو موت».

ويفلت فخرى من حملة القبض الكاسحة فى ليلة أول يناير ١٩٥٩ ويتفرغ لإعادة بناء الحزب ويحقق نجاحات كبيرة، ثم يقبض عليه، وفى السجن تتبدى معادن الرجال، فتحت وطأة التعذيب الوحشى كان فخرى صامدا وشجاعا وقدوة، ويكتب فخرى «افتتح اوردى أبوزعبل كسجن للشيوعيين يوم ٧ نوفمبر ذكرى الثورة البلشفية وكأن عبدالناصر كان يريد

أن يعلن تحديه لنا» من كتابه (الشيوعيون وعبدالناصر) ويصمد فخرى ويصمد معه الرفاق، ثم يأتى قرار حل الحزب فى ١٩٦٤، وبعد فترة عين جيولوجيا وشعر بالحرج. الرجل الذى ملأ الشيب شعره يذهب مع بعثة جيولوجية إلى أسوان تحت رئاسة شاب صغير السن، وقرر أن يخوض التحدى، بأن يثبت جدارته، وأثبتها مسح الوادى من أسوان وحتى حلوان ويقول «وأصبحت دون أن أدرى أهم خبير مصرى فى الصخور الرسوبية» وتوالت اكتشافاته وجهوده العلمية وحصل على الماجستير ثم الدكتوراة التى حصل عليها وهو يوشك على الإحالة إلى المعاش، لكنه نجح فى أن يصبح واحدا من أشهر الجيولوجيين المصريين وأسس المركز الجيولوجى فى الفيوم، وسأله أحد زملائه أنت ترهق نفسك فما الذى يعود عليك من ذلك وفيما يستعد فخرى للإجابة رد مسئول أمنى كان حاضرا للنقاش قائلا «لأنه يريد أن يقول الناس أن الذى أسس هذا المركز فخرى لبيب الشيوعى»، وبحين وقت التقاعد لكن فخرى ليس من النوع الذى يتقاعد فانغمس فى العمل فى منظمة التضامن الأفريقى - الآسيوى ليصبح واحدا من أشهر الخبراء فى هذه الساحة، ونعود إلى نضاله السياسى فقد انضم إلى منبر اليسار منذ الوهلة الأولى ليصبح واحدا من قادته حتى أصبح عضوا بالمكتب السياسى، وظل يواصل الكتابة السياسية والترجمة (ولعل أجمل ما ترجمه رواية عريان بين الذئاب التى تحكى قصة م عكسدات النازى) وكتابة القصة وإعداد الأبحاث العلمية، وفوق هذا وذاك أسس فى مقر الحزب بالزيتون «ورشة الزيتون الأدبية» التى تحولت إلى منارة فكرية وثقافية يزهو بها اليسار، ويواصل فخرى، يواصل ولم يزل، يناضل بكل ما تبقى من جهد ليحقق حلمه القديم عندما عاند ناظر أسوان الثانوية ووقف أمام باب المدرسة مطالبا بحقه فى التعليم، وها هو الآن يصبح ولم يزل معلما لجيل كامل من الثوريين.

يا عزيزى فخرى.. سلاما وتحية، ودمت لمصر وللتجمع.

بهيج نصار(١)

بعد أن أصدرت كتابى الأول «الأساس الاجتماعى للثورة العرابية» والذى لاقى اهتماما لا بأس به. زارنى فى منزلى بهيج نصار، ومعه كتاب بالانجليزية لوالتر لاكور «الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط» ودخل مباشرة فى الموضوع، وقال أمراً يجب تكتب تاريخ الحركة الشيوعية بدلا من أن تترك ذلك لهؤلاء المزورين وأشار إلى الكتاب الذى معه. وببساطه قبلت هذه المهمة وحاولت على مدى أكثر من عشرين عاما كنت طوالها وحتى الآن ممتنا لاختياره لى.

أتى بهيج من أسرة محافظة من أسر القاهرة العريقة، الأب تاجر والسكن فى قلب القاهرة القديمة. الدراسة الابتدائية فى مدرسة النحاسين والثانوية فى الخديوية . قدماه عرفت لآلاف المرات الحوارى الجميلة للحسين والنحاسين والدراسة والباطنية. وفى بداية دراسته الثانوية شارك فى مظاهرة ضد تصريح وزير خارجية بريطانيا الذى قال فيه «إن الوقت لم يزل مبكرا لكى تحصل مصر على استقلال كامل» هتف مع الجميع «يسقط هور ابن الطور» شىء بارد لمس رأسه التفت ليجد ضابطا بريطانيا يقتاده بمسدسه إلى منحنى تلقى فيه ضربات عنيفة من شوم الجنود.

يقول بهيج فى حواره معى «من هذه اللحظة عرفت أن المسألة ليست سهلة، بقيت وفدى الهوى، وطنى الميول ولكن بلا طريق محدد».

ويروى فى حواره كنت أحلق عند حلاق ينزوى محله الصغير فى ركن حارة متفرعة من شارع جوهر القائد. الرجل لا يتوقف عن الكلام مع الزبائن وهو لا يغير موضوع حديثه. كان دوما يتحدث عن المسكوف (نسبه إلى موسكو) الذين حولوا بلدهم بعد الثورة البلشفية إلى جنة للفقراء ويروى أساطيرا عن الاتحاد السوفيتى حيث لا فقر ولا ظلم، وفى مرات لاحقة تطور الحديث الذى يصاحب ضربات المقص فى شعره إلى انتصارات السوفييت فى

ستالينجراد ولينينجراد..واختزن بهيج ذلك كله ليدخل كلية الاداب قسم فلسفة وهو ممسك بالخيط الذى تلقفه من هذا الحلاق البسيط.

وفى ردهات كلية الاداب سمع لأول مرة عن الماركسية. ومع زملاء منهم مصطفى سويف ومحمد جعفر تردد على منزل أنور كامل فى شارع قصر العينى ليستمع إلى محاضرات عن الماركسية فهم الآن فى تنظيم اسمه «الخبز والحرية». وربما كان زميله أكثر صلة بأنوركامل، وربما كان على علاقة خفية مع معيد بقسم انجليزى هولويس عوض، أما هو فقد بقى على الحافة، لا هو إقتحم ولا خرج، كان لم يزل يحتاج إلى مزيد من الاستماع ليقرر. لكنه وبرغم كونه طالبا فى قسم فلسفة شعر بالفارق الهائل بين محاضرات مليئة بالغموض المتعالى على فهم البسطاء وبين ما يقوله أمثال حلاق حارته. وظل يتساءل كيف يفهم الحلاق وأمثاله هذه المحاضرات المعقدة عن عبقرية التناقض، وقوانين الجدل وفائض القيمة؟ وفيما هو لم يزل يبحث عن إجابة قبض البوليس على أنور كامل ومحمد جعفر وتوقفت المحاولة. ثم انتحى نحو لويس عوض فى جمعية الجرامفون ومحاورات هى أقرب إلى الفلسفة منها إلى السياسة. وفجأة بدأ طيف موج جديد يلوح فى الجامعة شبان أكثر بساطة وأكثر فعالية وأكثر انفتاحا على الجماهير من ابناء منظمة «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) كمال عبدالحليم ، جمال غالى، لطيفة الزيات» وما أن يضع قدمه حتى تفجرت حدتو إلى عدة انقسامات، وتداول الأمر مع عدد من زملائه (محمود العالم- عباس أحمد- أمين عز الدين) واتفقوا على المرور على جميع هذه الانقسامات لاختيار التنظيم الأفضل وقبل أن تكتمل دورة الاستماع تخرج فى الجامعة، أبوه صمم أن يحصل على وظيفة ثابتة ومعاش مضمون فعمل مدرسا فى مغاغة الثانوية لمدة سنتين ثم عاد للقاهرة ليعمل معدا لنشرة الأخبار والبرامج الاخبارية فى الاذاعة، وفور عودته التقى بمحمود العالم الذى ضمه إلى تنظيم صغير جدا هو نواة الحزب الشيوعى المصرى. كل الحماس المختزن فى وجدانه تفجر دفعة واحدة، وشوقه القديم لفعل شىء من أجل الفقراء اندفع فى نشاط متحمس لكنه يصف هذه الفترة «رغم حماسى الشديد كان التنظيم صغيرا جدا فأصبحت كمن يحاول الجرى فى غرفة ضيقة».

وكان فوزى جرجس يحاول أن يطبق حرفا بحرف تجربة لينين فى محاولة توحيد الشيوعيين عبر مجلة تنشر كل الآراء. فأصدر نشرة صغيرة جدا، ورديئة الطباعة جدا

وقليلة التأثير جدا لتدير حوار من أجل الوحدة، وخلال هذه المحاولة قبض على قيادة التنظيم، ولأن زعيم التنظيم فوزى جرجس كان يمارس كل شىء عبر ما كان عند البلاشفة، حيث كان لينين يقول إن من يسجن من القاده يحل محله من هو فى خارج السجن بالضرورة، وبالضرورة أصبح محمود العالم وبهيج نصار مسئولين رغم أنفهما، العالم مسئولا سياسيا وهو مسئول تنظيمى، ويتسع العمل باتساع أفق القيادة لكنه لا يلبث أن يقبض عليه عام ١٩٥٣. وفى السجن التقى بالقيادة القديمة، وكان الخلاف ملتهبا بين فوزى جرجس وابراهيم عرفه ، وبما انه المسئول القادم لتوه من خارج السجن فهو بالمنطق الشكلى المسئول عنهما، ورغم أنفه مرة أخرى أصبح مسئولا عن اثنين من عتاة الشيوعيين يحاربان بعضهما البعض بضراوة. ويفرج عنه بعد شهرين (ضبطت عنده أوراق مخطوطه وقال الطب الشرعى انها ليست بخطه). خرج وهو يلتهب حماسا ضد الديكتاتورية العسكرية، وبعد اربعة اشهر فقط يقبض عليه من جديد. وفى خارج السجن كان محمود العالم وشهدى عطية يستعيدان زمالتهما القديمة ويعملان بجدية من اجل توحيد الشيوعيين وتتوحد خمس منظمات (حدتو- حدتو ت ث - النجم الأحمر- النواة- طليعة الشيوعيين) ويتأسس الحزب الشيوعى المصرى الموحد. ويأتى بالنبأ إلى السجن وافد جديد هو أنور عبد الملك. ويتوحد رفاق المنظمات داخل السجن ورغم ان حدتو كانت الأغلبية لكنها رشحت لتولى المسئولية بهيج نصار فيخوض من جديد معركة التوازن بين من لايمكن التوازن بينهم، تتوحد الكلمات لكن الارادات الفعلية تتعارض، ويفرج عنه ليجد ان قرارا قد صدر بفصله من الأذاعة وهو فى السجن ويعمل صحفيا فى المساء منذ أن أسسها خالد محيى الدين، ويتوحد الشيوعيون جميعا فى حزب واحد، ويكون بهيج عضوا فى لجنته المركزية لكن كارثة الانقسام تقع وتأتى معها حملة قبض طاغية حيث قبض على مئات الرفاق فى ليلة عيد الميلاد «١ يناير ١٩٥٩» وفى السجن الممتد هذه المرة يرتبط اسم بهيج بتقرير لعب دورا بالغ الأهمية فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية هو تقرير «المجموعة الاشتراكية» ونواصل مع بهيج رحلة نضاله.